عن ابن الرومى يكتب فصولا غير مباشرة فى دوافع النهضة وموانعها . كان العقاد ينهج سبيل الفنان لا سبيل الواعظ الثرثار . فمسارب كتابات العقاد عن ابن الرومى مسارب متشعبة عميقة متداخلة . إن حاضر الحياة أهم من الماضى فى مضيه وانقطاعه . ابن الرومى الشاعر إذن درس مفيد فى بناء هذا الحاضر من بعض النواحى . وأنت تعرف كيف أقام العقاد صرحا لتشاؤم ابن الرومى وسخريته وهجائه ووساوسه حتى يجعله شاعرا وإنسانا مرموقا ما استطاع إلى ذلك . وللعقاد حيله أو أساليبه المعهودة فى العطف الذى يكشف عن الحياة الداخلية . فالوقوف عند الوقائع الخارجية يباعد بيننا وبين ابن الرومى . ولكن الاحتفال بالحياة الداخلية يمضى بنا فوق الفواصل بيننا وبين ابن الرومى ، أو يمضى بنا فوق عثراته . ومن خلال الاحتفال العاطف الصديق يتاح للعقاد أن يكون ملامح أساسية من رمز الطفل الذى يتحرك فى أعماق كتابات العقاد لأنه صورة من صور الفرد الممتاز أو العبقرى على حد تعبير العقاد .

وتستطيع أن تتأمل فى الكتاب وطرق إدارة التفكير فيه ، فسوف ترى العقاد مشوقا يعيد التنبيه إلى هذا التفرد . وإذا عجزت الكتابة عن بلوغ هذه الغاية نالت ما تستحق من لوم العقاد . ولاسبيل أمام العقاد لبناء الرمز ـ بعبارة أخرى ـ إلا أن يجمع بين الوضوح والغموض . لقد أراد أن يجعل القرن الثالث رمزا ، وأراد أن يجعل الطفل رمزا ، وأراد أن يوحى إليك من بعيد أن مواجهة الشعر أو توضيحه يجب أن يحفظ لحرية الشعر مكانا . هل نستطيع أن نتجاهل أهمية البحث عن كلمات مفاتيح . كلمات يعقب بعضها بعضا ، ويحل بعضها محل بعض . كان العقاد حريصا على الشعور بالدهشة ؛ فالدهشة قرينة اليقظة . اليقظة نفسها صورة منها .

كان العقاد يدرك أن لدينا طرقا متعددة للتعامل مع شخصية الإنسان . قد يجد الباحث فى بناء سياق معهود ، وقد يجد فى إخفاء الدهشة والاستغراب ، فكل شىء فى مكانه . وبعبارة أخرى يجد الكاتب فى بناء حاسة التوقع على نحو ما يفعل الدكتور طه حسين فى كثير من الأحيان .

لكن العقاد حريص على ألا تضل الدهشة المرجوة فى الزحام . العقاد حريص على رمز لا طائفة من الوقائع والحوادث . التحليل عند العقاد فى خدمة هذا الرمز . التحليل ليس خالصا للتحليل . كان العقاد يعلم أن بعض التحليل نوع من إفراط التسهيل والتبسيط . كان العقاد حريصا على هيبة الإنسان ، ومايجوز للتحليل فى منطق العقاد